الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل – الشيخ ناصر مكارم الشيرازي – ج ١٨ – ص ٥٤٠ – ٥٤٢

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ{١٧} وَلَا يَسْتَثْنُونَ{١٨} فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ{١٩} فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ{٢٠} فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ{٢١} أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ{٢٢} فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ{٢٣} أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ{٢٤} وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ{٢٥}

وموضوع القصة هو : أن شيخا مؤمنا طاعنا في السن كان له بستان عامر ، يأخذ من ثمره كفايته ويوزع ما فضل من ثمرته للفقراء والمعوزين ، وقد ورثه أولاده بعد وفاته ، وقالوا : نحن أحق بحصاد ثمار هذا البستان ، لأن لنا عيالا وأولادا كثيرين ، ولا طاقة لنا بإتباع نفس الأسلوب الذي كان أبونا عليه . . ولهذا فقد صمموا على أن يستأثروا بثمار البستان جميعا ، ويحرموا المحتاجين من أي عطاء منها ، فكانت عاقبتهم كما تحدثنا الآيات الكريمة عنه . . يقول تعالى : إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين (١) . ولا يستثنون أي لا يتركون منها شيئا للمحتاجين . وعند التدقيق في قرارهم هذا يتضح لنا أن تصميمهم هذا لم يكن بلحاظ الحاجة أو الفاقة ، بل إنه ناشئ عن البخل وضعف الإيمان ، واهتزاز الثقة بالله سبحانه ، لأن الإنسان مهما اشتدت حاجته ، فإنه يستطيع أن يترك للفقراء شيئا مما أعطاه الله . وقيل : إن المقصود من عدم الاستثناء هو عدم قولهم (إن يشاء الله) حيث كان الغرور مسيطرا عليهم ، مما حدا بهم إلى أن يقولوا : غدا سنذهب ونفعل ذلك ، ‹ صفحة ٥٤١ › معتبرين الأمر مختصا بهم ، وغافلين عن مشيئة الله ، ولذا لم يقولوا : (إن شاء الله) . إلا أن الرأي الأول أصح (١) . ثم يضيف تعالى استمرارا لهذا الحديث : فطاف عليهم طائف من ربك وهم نائمون . لقد سلط الله عليها نارا حارقة ، وصاعقة مهلكة ، بحيث أن جنتهم صارت متفحمة سوداء فأصبحت كالصريم ، ولم يبق منها شئ سوى الرماد . " طائف " من مادة (طواف) ، وهي في الأصل بمعنى الشخص الذي يدور حول شئ معين ، كما تستعمل أحيانا كناية عن البلاء والمصيبة التي تحل في الليل ، وهذا المعنى هو المقصود هنا . " صريم " من مادة (صرم) بمعنى (القطع) وهنا بمعنى (الليل المظلم) أو (الشجر بدون الثمار) أو (الرماد الأسود) لأن الليل يقطع عند مجئ النهار ، كما أن النهار يقطع عند مجئ الليل ، ولذا يقال أحيانا لليل والنهار (صريمان) ، والمقصود بذلك هو : البلاء السماوي الذي تمثل بصاعقة عظيمة – فيما يبدو – أحالت البستان إلى فحم ورماد أسود ، وهكذا فعل الصواعق غالبا . وعلى كل حال فإن أصحاب البستان بقوا على تصورهم لأشجار جنتهم المملوءة بالثمر ، جاهزة للقطف : فتنادوا مصبحين (٢) .

الكتاب القديم (مطلب وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ{٢٥}

وقالوا : أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . " (أغدوا " من مادة (غدوة) بمعنى بداية اليوم ، ولذا يقال للغذاء الذي يؤكل في أول اليوم – وجبة الإفطار – غداء ، بالرغم من أن (غداء) تقال في التعابير ‹ صفحة ٥٤٢ › المستعملة حاليا لوجبة الأكل المتناولة في وقت الظهر . وعلى ضوء المقدمات السابقة : فانطلقوا وهم يتخافتون . لقد كانوا يتكلمون بهدوء حتى لا يصل صوتهم إلى الآخرين ، ولا يسمعهم مسكين ، ويأتي لمشاركتهم في عملية جني الثمر أو تناول شئ من الفاكهة . ويرتقب الفقراء يوم الحصاد بفارغ الصبر في مثل هذه الأيام ، لأنهم تعودوا في كل سنة أن ينالهم شئ من الفاكهة كما كان يفعل ذلك الشيخ المؤمن ، إلا أن تصميم الأبناء البخلاء على حرمان الفقراء من العطاء ، والسرية التي غلفوا بها تحركاتهم ، لم تدع أحدا يتوقع أن وقت الحصاد قد حان . . حيث يطلع الفقراء على الأمر بعد انتهائه ،

وبهذا تكون النتيجة : وغدوا على حرد قادرين . " حرد " على وزن " فرد " بمعنى الممانعة التي تكون توأما مع الشدة والغضب ، نعم إنهم كانوا في حالة عصبية وانفعالية من حاجة الفقراء لهم وانتظار عطاياهم ، ولذا كان القرار بتصميم أكيد على منعهم من ذلك . وتطلق كلمة (حرد) أيضا على السنوات التي ينقطع فيها المطر ، وعلى الناقة التي ينقطع حليبها .